

الحج: الرحلة التي تُعيد تعريف الإنسان

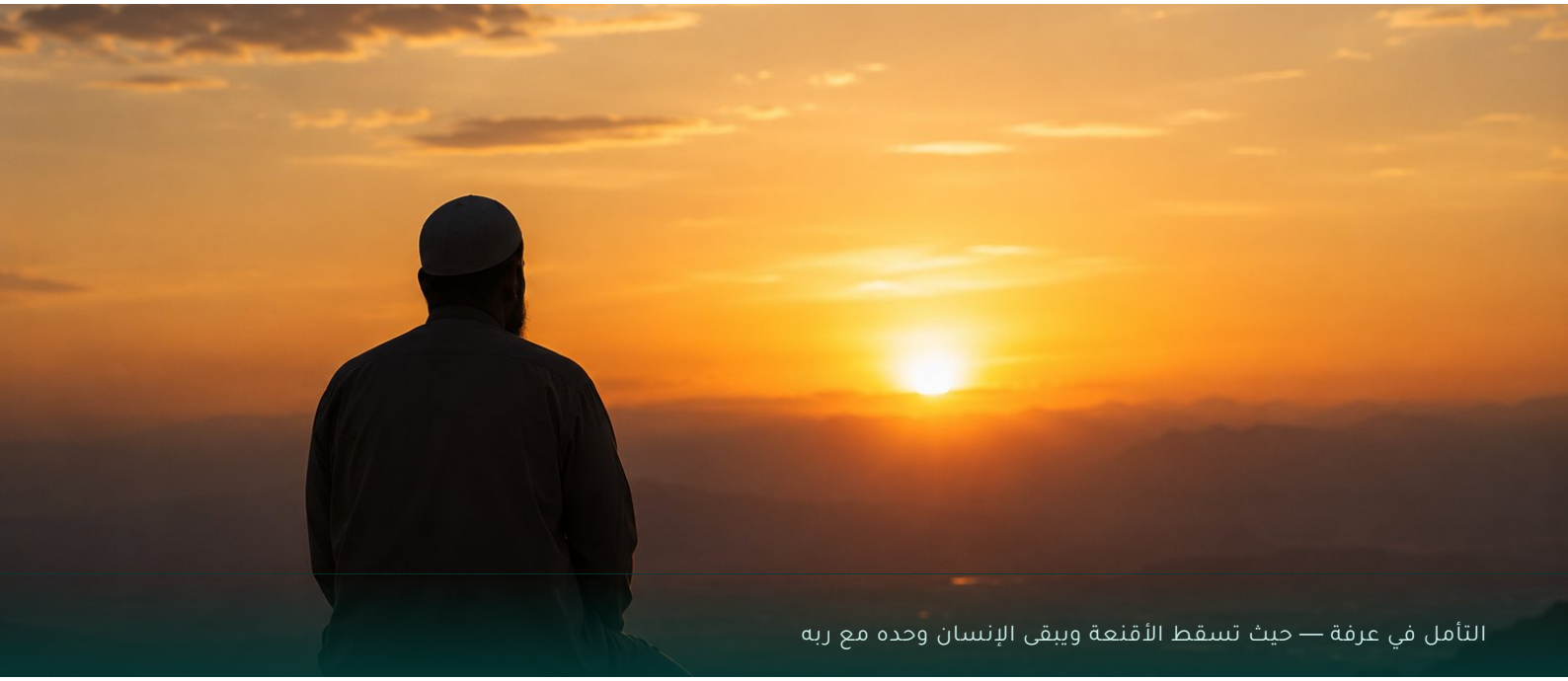
مايو 2026

هناك سؤالٌ خفيّ يتردد في داخل كثيرٍ من المثقفين والمهنيين، حتى وإن لم يصرّحوا به بصوتٍ عالٍ: ما الذي يمكن أن تضيفه رحلةٌ إلى صحراء الحجاز لإنسانٍ قرأ كثيرًا، وسافر كثيرًا، وخاض من التجارب ما يكفي ليظن أنه فهم الحياة؟ يبدو السؤال مشروعًا في عصرٍ أصبحت فيه المعرفة متاحةً بضغطة زر، وصار الإنسان يقيس نضجه بما راكمه من شهاداتٍ، وخبراتٍ، وعلاقاتٍ، وإنجازات. لكن الحج لا يأتي ليضيف معلومةً جديدة إلى العقل بقدر ما يأتي ليهزّ البنية التي يقوم عليها تصور الإنسان لنفسه. ولهذا، فإن أثره الحقيقي لا يُقاس بما "تعلّمته" هناك، بل بما سقط منك وأنت تعبر تلك الرحلة.

الحج ليس رحلةً دينيةً بالمعنى الطقوسي الضيق فقط، بل تجربةٌ وجودية عميقة تعيد ترتيب العلاقة بين الإنسان ونفسه، وبين الداخل الذي يخفيه والصورة التي اعتاد أن يقدمها للعالم. فمنذ اللحظة الأولى يبدأ هذا التفكيك الهادئ للهوية. نحن في حياتنا اليومية نبني أنفسنا عبر ما نملك: الاسم، المنصب، الشهادة، المكانة الاجتماعية، وحتى الطريقة التي ينظر بها الآخرون إلينا. نقضي سنواتٍ طويلة في صناعة هذه الطبقات حتى نظن في النهاية أنها نحن، ثم يأتي الإحرام ليقول شيئًا بالغ القسوة والبساطة في آنٍ واحد: اترك كل ذلك خلفك، ثوبان أبيضان فقط، بلا ألقاب، بلا إشارات طبقية، بلا رموز اجتماعية تخبر الناس من تكون. يذوب الفرق بين المدير والعامل، بين الأستاذ الجامعي والأمي،

بين من اعتاد أن يُعرَّف بإنجازاته ومن لا يملك شيئًا يقدمه للعالم سوى حضوره الإنساني المجرد. وهنا يظهر السؤال الذي يقضي كثيرٌ من البشر أعمارهم وهم يهربون منه: من أنت حين تُنزَع عنك كل الهويات التي اكتسبتها؟

هذه اللحظة التي يسميها بعض علماء النفس "التعرية الوجودية" لا يصل إليها الإنسان عادةً إلا بعد أزمةٍ كبرى أو خسارةٍ موجعة أو تحولٍ يهدم صورته القديمة عن نفسه. أما الحج، فيصنعها خلال أيامٍ قليلة، وكأن الرحلة كلها مصممة لتعيد الإنسان إلى جوهره الأول قبل أن تتراكم فوقه تعريفات العالم. ولهذا فإن من ينظر إلى الحج من الخارج قد يراه مجرد مشهدٍ هائل من الزحام والحرارة والضجيج والحركة المتواصلة، لكن المفارقة أن هذه الفوضى الظاهرة تخفي تحتها واحدًا من أكثر المشاهد الإنسانية انضباطًا على الإطلاق. فالناس هناك لا تجمعهم لغةٌ واحدة، ولا جنسيةٌ واحدة، ولا مصالح مشتركة، ومع ذلك يتحركون بروحٍ متقاربة بشكلٍ يصعب تفسيره بالمنطق التنظيمي التقليدي. وما يصنع هذا الانسجام ليس النظام الخارجي وحده، بل وحدة المقصد الداخلي.



التأمل في عرفة — حيث تسقط الأقنعة ويبقى الإنسان وحده مع ربه

وهنا يكمن أحد أعمق دروس الحج: أن الإنسان يصبح أكثر اتزانًا حين يعرف لماذا يفعل ما يفعل. في المؤسسات كما في الحياة، ليست المشكلة الكبرى نقص الأدوات أو ضعف الهياكل، بل غياب المعنى. يمكن لفريقٍ كامل أن يعمل بكفاءةٍ عالية دون أن يملك روحًا حقيقية، ويمكن لمجموعةٍ محدودة الإمكانات أن تتحرك بطاقةٍ هائلة لأن غايتها واضحة. والحج يكشف هذه الحقيقة بصورةٍ نادرة: فالتنظيم الحقيقي يبدأ من الداخل، لا من اللوائح والتعليمات. ولهذا، فإن الذين يدرسون القيادة والإدارة والسلوك الإنساني قد يجدون في الحج نموذجًا حيًا لفكرة يصعب تعليمها نظريًا: أن وضوح الغاية يصنع من البشر منظومةً أكثر انسجامًا من أي نظامٍ مفروض بالقوة.

لكن التجربة لا تتوقف عند حدود إعادة تعريف الهوية أو اكتشاف المعنى؛ فالحاج يجد نفسه أيضًا أمام أفعالٍ لا يملك تفسيرًا كاملًا لها. يطوف، ويسعى، ويرمي الجمرات، ويقف طويلًا في عرفة، دون أن يرى "نتيجةً" مباشرة لكل فعل. هنا يواجه الإنسان أزمة العقل المعاصر الذي اعتاد أن يطلب تفسيرًا كاملًا لكل شيء قبل أن يتحرك. غير أن الحج يدرّب الإنسان على نوعٍ آخر من النضج: أن يمضي حتى حين لا يملك كل الإجابات. وهذا ليس استسلامًا للعقل، بل إدراكٌ عميق لحدوده. فعمر بن الخطاب، المعروف بصرامته الفكرية ووضوح منطقه، وقف أمام الحجر الأسود وقال: "إني

لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبّلتك." وفي هذه العبارة قدرٌ هائل من الوعي؛ فهي لا تعبّر عن غياب التفكير، بل عن النضج الذي يجعل الإنسان يدرك أن الحياة أوسع من أن تُختزل فيما يستطيع تفسيره بالكامل.

ولعل هذا أحد الأسباب التي تجعل الحج تجربةً مختلفة عن أي برنامجٍ تدريبي أو رحلةٍ تأملية معاصرة؛ لأنه لا يدرّب الإنسان على المعرفة فقط، بل على احتمال الغموض، وعلى القدرة على الحركة وسط مساحةٍ لا يكتمل فيها اليقين. وهي مهارةٌ يحتاجها القادة والمفكرون وكل من يتحمل مسؤوليةً حقيقية في الحياة، لأن القرارات الكبرى لا تأتي دائمًا بعد وضوحٍ كامل، بل كثيرًا ما تُتخذ وسط الضباب.

ومن هنا يمكن فهم ذلك الشعور الغريب الذي يصفه كثيرٌ من الحجاج: أن يكون الإنسان في أكثر بقاع الأرض ازدحامًا، ومع ذلك يشعر بأعمق حالات الصفاء الداخلي. ليس ذلك الشعور المؤلم بالوحدة، بل حالة من السكون كأن الضجيج الخارجي كله يتراجع فجأة لتظهر الأصوات التي كان الإنسان يهرب منها طويلًا. في الحياة الحديثة نحاصر أنفسنا باستمرار: إشعارات، اجتماعات، محتوى لا ينتهي، وأحاديث تمنعنا من سماع ذواتنا الحقيقية. أما الحج، فيدفع الإنسان دفعًا إلى مواجهة نفسه بلا وسائط. ولهذا يعود كثيرٌ من الناس من هناك وهم يشعرون أنهم رأوا ذواتهم للمرة الأولى منذ سنوات. وربما لهذا السبب تحديدًا يشتاق الناس للحج — لأنه ليس مجرد رحلة، بل مواجهة مع الأسئلة التي يمكن تأجيلها طويلًا، لكن لا يمكن الهروب منها إلى الأبد: ما الذي بقي منك بعيدًا عن كل ما تملكه؟ كيف تريد أن تعيش؟ وماذا تحمل روحك فعلًا حين يسقط كل الضجيج؟

ثم تأتي طبقةٌ أخرى من العمق لا يمنحها أي مكانٍ آخر على الأرض: الإحساس بأنك لا تمشي في جغرافيا فقط، بل في تاريخٍ إنساني متراكم. هناك تشعر أن الزمن نفسه حاضرٌ معك. هنا وقف إبراهيم عليه السلام في لحظةٍ جعلها الفيلسوف كيركيغارد نموذجًا للقفزة الإيمانية التي تتجاوز الحسابات العقلية المعتادة، وهنا سعت هاجر وحدها في الصحراء بلا ضماناتٍ مادية فتحول سعيها إلى رمزٍ خالد يتكرر في حياة الملايين، وهنا ألقى النبي محمد ﷺ خطبة الوداع التي ما تزال تُقرأ إلى اليوم بوصفها واحدةً من أعظم الرسائل الأخلاقية والاجتماعية في التاريخ. ولهذا فالحج ليس انتقالًا من مدينةٍ إلى مدينة، بل عبورٌ عبر طبقاتٍ من المعنى والتاريخ والإنسان.

وفي النهاية، قد لا يكون أعظم ما يكتشفه الإنسان في الحج أنه أصبح أكثر معرفة، بل أنه أصبح أكثر صدقًا مع نفسه. فالعالم الحديث علّمنا كيف نُحسن تقديم ذواتنا، لكن الحج يحاول أن يعلّمنا كيف نرى ذواتنا كما هي. وربما لهذا قال الفيلسوف بليز باسكال إن معظم مشكلات الإنسان تنبع من عجزه عن الجلوس وحيدًا في غرفةٍ هادئة. والمفارقة أن الحج يفعل العكس تمامًا؛ يأخذك إلى أكثر بقاع الأرض ازدحامًا لكي يمنحك أخيرًا تلك الغرفة الهادئة في داخلك. وربما كان هذا هو المعنى الأعمق لقوله تعالى: (وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍّ عميق)، فالفجُّ العميق ليس طريقًا جغرافيًا فحسب، بل ذلك العمق الذي ينبغي أن يأتي الإنسان منه: عمق التساؤل، وعمق الصدق، وعمق الرغبة الحقيقية في أن يرى نفسه كما لم يرها من قبل.

المراجع

كيركيغارد، سورن. **الخوف والارتجاف.**

غارودي، روجيه. **الإسلام دين المستقبل.**

ابن القيم الجوزية. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.**

باسكال، بليز. **الأفكار (Pensées).**

كامو، ألبير. **أسطورة سيزيف.**